الحكمة ضالة المؤمن

من الثابت والمسلم به أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها فهو أحق بها ، وإذا اخترنا أمثلة ثلاثة لعدة مجتمعات قطع كل منها شوطًا كبيرًا في التقدم العلمي والحضاري الحديث ، لنستعرض بشكل عاجل صورة لتجربة كل منها في مسألة دخول المرأة إلى العمل ، والنتائج التي ترتبت على الأسرة وأفرادها والمجتمع بشكل عام ، خاصة من حيث قيام المرأة بوظيفتي الأمومة والزوجية والمادية ، ومن حيث ترابط أفراد العائلة وانسجام أفرادها وما يرتبط بذلك من محافظة تلك المجتمعات على شخصيتها الحضارية ويمكن أن تكون هذه الأمثلة استعراضًا مبدئيًا لدراسة علمية متعمقة ، ومن الأمثلة على دخول المرأة إلى العمل من أوسع الأبواب ، ماذا كانت النتائج ؟

أولا : المجتمع الأمريكي :

نجد أن الأسرة العربية بشكل عام تمتاز عن الأسرة الأمريكية من حيث تماسك كيان الأسرة وترابط أفرادها بروابط الرحمة والتعاضد والتساند والتزام المرأة بمسؤولياتها الأساسية تجاه زوجها وأولادها حتى مرحلة الشباب أو ما بعده ، ونكتفي بقول الدكتورة إيدا إيلين : إن سبب الأزمات العائلية في أمريكا وسر كثرة الجرائم في المجتمع هو أن الزوجة تركت بيتها لتضاعف من دخل الأسرة فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق .

وأضافت : إن التجارب أثبتت أن عودة المرأة إلى الحريم هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيل الجديد من التدهور الذي يسير فيه .

ثانيًا : المجتمع الياباني :

والمثال الثاني على مجتمع قطع شوطًا كبيرًا وعظيمًا في النهضة العلمية والحضارية والصناعية الحديثة هو المجتمع الياباني ، نجده أثناء مسيرته قد نافس الدول العظمى في تقدمه الصناعي والعلمي ، أما بالنسبة لتجربته في دخول المرأة إلى العمل خارج المنزل فنوردها حسبما رواها لنا أحد أبنائنا المبتعثين للتدريب [1] في هذه البلاد حيث يقضي فيها عدة سنين والتقى بالمبتعثين الذين خبروا هذه البلاد وعاداتها .

فالمرأة في اليابان يمكنها أن تعمل في حالتين : الأولى : قبل الزواج ، أما الحالة الثاني : فهي بعد أن يشتد عود أبنائها ، وتنخفض مسؤولياتها التربوية نحوهم ، عند ذلك فإنه بإمكانها أن تعمل .

أما الفترة التي تعقب الزواج فإن المرأة مصيرها في البيت حيث تكرس نفسها لخدمة زوجها وإسعاده ، والفكرة هذه قد جاءت من اعتقادهم وعاداتهم التي اقتنعوا بها وهي ضرورة احترام المرأة لزوجها احترامًا كاملًا والإخلاص له ولأسرتها الصغيرة ، إلى أبعد الحدود ، هذا هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنها بعد الزواج يتم إنجابها للأطفال ، وتجاه ذلك تجد العادات اليابانية تتجه إلى اهتمام المرأة بأطفالها إلى أبعد الحدود فهي كالخادمة لهم ، ولم يعرف عنها أنها تقول لطفلها يومًا : اسكت ، أي تسكته من أجل انشغالها عنه كما يجري في بعض الأحيان عندنا ، والمرأة اليابانية سيدة في بيتها محترمة من قبل

---

(١) لقد حدث لليابان أن واصلت تقدمها للحاق بنهضة الغرب التكنولوجية ، وكان لها طابع مميز وهذا يحتاج منا إلى الاطلاع الجديد على نهضتها وتتبع جوانب التنمية عندها كالجانب التعليمي والاجتماعي والحضاري ، وما وصلت إليه نهضتها بعد كتابة هذا المقال منذ سنوات ، ارجع إلى برامج محمد أحمد الشقيري في قناة الرسالة عن نهضة اليابان .

الرجل الذي يغيب عن البيت من الصباح إلى المساء في مصنعه وعمله الذي يخلص له أشد الإخلاص ويتفانى من أجله ، كما أن المرأة اليابانية بالتالي تتصف بالصبر والإخلاص لبيتها وأسرتها أثناء غياب زوجها ، ولكن البيت ليس سجنًا لها ، فهي تقوم بقضاء حوائج المنزل من لوازم يومية للمعيشة ، وفي غالب الأحيان فإن المرأة تتولى مسؤولية الإنفاق على البيت كما يتعاون الطرفان بإبداء الآراء حول أي موضوع يخص العائلة اليابانية ، ورأي الرجل يحترم من قبل المرأة ، فمثلًا إذا اقتنع الزوجان بحاجة المنزل إلى شراء قطعة أثاث معين كالسجادة مثلًا ، فالرجل يوضح المواصفات التي يرغب في وجودها ، وتقوم المرأة بعد ذلك بالنزول إلى السوق وقد تستعين ببعض أهل الخبرة من أقاربها أو معارفها وتسأل في عدة محلات حتى تجد المواصفات التي أعطاها لها زوجها ، كما أنها تختار الأصلح والأنسب لمنزلها ، أو الذي يكون أكثر توفيرًا لميزانية الأسرة ، ومن الملاحظ تقديس وتجسيد مقام الرجل عند المرأة في أكثر الأمور حتى البسيطة منها كالأداة الغذائية التي يتناول بها الطعام مثلًا فتكون الأداة التي تخص الرجل أكبر قليلًا من التي تخص المرأة .

وهكذا نجد أن المجتمع الياباني ركز على أصعب مرحلة من مراحل المرأة وهي مرحلة زواجها وإنجابها ولهذا فقد حافظ على وظيفتها الأساسية تجاه زوجها وأبنائها .

ويعتقد اليابانيون أن اشتغال المرأة في هذه المرحلة سيمنعها من العناية بزوجها وأطفالها ، ولم تنشأ عند اليابانيين عادة ، ترك الأم طفلها لدور الحضانة أو المربيات والخادمات ، فكل أم تقوم بتربية أبنائها وتخلص في ذلك أشد الإخلاص ، وبهذه الطريقة نبغ الرجال وأخلصوا في عملهم .

والمجتمع الياباني بالإضافة إلى محافظته على هذه العادة ، فإنه حافظ أيضًا على طريقة مأكله ، وملبسه وبساطة معيشته كالجلسة اليابانية «والفوتون» ، أي : اللحاف ، الذي ينام عليه ، ويتغطى بآخر مثله .

وحافظ المجتمع الياباني [١] على الكثير من مقوماته وعاداته وموروثاته ولم يأخذ من المجتمع الأمريكي المظاهر والقشور ، بل اتبع كل ما هو مفيد كتنظيم الوقت مثلًا .

أما الأعمال التي تقوم بها المرأة اليابانية ، فهي على سبيل المثال لا الحصر ، فإنها تعمل بالدرجة الأولى بمهنة التدريس أو تعمل في مراكز التسويق أو الوظائف الكتابية أو كطبيبة ، كما تعمل العازبات في البنوك ومخابر التحليل ، وإذا عملت المرأة بوظيفة كتابية في شركة ما فمنضدتها تكون في الوسط .

وتكون هذه السيدة بمثابة الأم لزملائها تقضي لوازم الكتابة والمأكل والمشرب والجميع يحترمونها ، كما أنهم لم يعرف عنهم في الأعمال والوظائف أن ترأست الرجال امرأة ، بل عادة ما يكون الرجل هو المسؤول ، ليس لأنها لا تملك إمكانية القيادة أو الذكاء ، ولكنهم يعتقدون أن المرأة ستترك العمل بعد فترة ، وهذا يدل على اعتقادهم الراسخ بعلاقة المرأة المتينة ببيتها وبأسرتها وتقديرًا منهم لقرار المرأة فيه ، وملازمتها له ، ونتيجة لمحافظة اليابانيين على مقوماتهم هذه ، فقد استطاع المجتمع الياباني أن يتبوأ مركزه في العالم حضاريًا وعلميًا وصناعيًا ، كما استطاع الأب والأم أن يغرسا في نفس الطفل بذور

---

(١) ادوارد ، يوشامب / التربية في اليابان المعاصرة ـ بتكليف من مكتبة التربية العربي لدول الخليج ـ تعليق وترجمة د/ محمد عبد العليم موسى .

الابتكار والإبداع ، والأسرة اليابانية ما زالت متماسكة من حيث وجود الجد والأب والابن في بيت واحد .

ثالثا : جمهورية مصر العربية :

ولمثال الثالث هو قطر عربي مسلم ، ونموذج هام عن البلاد العربية وهو مصر وذلك لتجربتها المتقدمة في اللحاق بركب الحضارة الحديثة ، فقد أتاحت قوانين التعليم والعمل الفرصة للمرأة مثل الرجل ، ودخلت المرأة كثيرًا من مجالات العمل ، كما اعتلت المناصب في الدولة ووصلت إلى مرتبة وزير ، وكان خروج المرأة للعمل بدون تحديد لفترة معينة من عمرها ، كما أن قوانين التعليم والعمل لم تعمل على التنسيق بين وظيفتها البيتية ووظيفة الرجل ، فقد ساعدتها القوانين والأنظمة هذه على الخروج للعمل مثل الرجل تمامًا، بالإضافة إلى أن اقتران فكرة نيلها للشهادة بشغل الوظيفة ، جر المرأة إلى العمل التكسبي على حساب إهمال وظيفتيها الأساسيتين وهما : الأمومة والزوجية .

ويمكننا أن نستعرض أقوال بعض الكتَّاب بشأن خروج المرأة إلى العمل حيث كان ذلك على حساب نواحٍ مختلفة ، ففيما يتعلق بوظيفتها الأساسية تجاه الزوج والأطفال يقوم أحد الكتَّاب في هذا الصدد : إن خروج الأب والأم للعمل اليومي حاملين أطفالهما إلى الجدة أو الجيران أو الحضانة حسب الظروف الاقتصادية للأسرة أمر صعب وخطير ، وقد يصادف أن يصاب طفل بالالتهاب الرئوي من تأثره ببرودة الصباح ، أو يأخذ ثانٍ نزلة معوية أو شعبية حادة ، وثالث يتعرض لسوء التغذية لعدم انتظام مواعيد الطعام ، ويكون أيضًا على حساب تنشئة الأبناء ، والجميع معرضون لأزمة نفسية تملأ الطرقات يقتلهم القلق ولا يجدون عملًا من الأعمال فيعتمدون على الغش في

الامتحانات للحصول على الرخصة التي تمكنهم من نيل إعانة من الدولة تسمى راتبًا شهريًا ، ويصاب المجتمع بالخمول ويضعف الإنتاج ، وينتشر الفقر ويصبح الأمل الوحيد في الخلاص «بروليتاريا العمال» ، وما شابهها من ألوان القصور العقلي المدمر ، هذه خلاصة فقدان الطفل جو الاستقرار الأسري أما عذاب الأب في مرحلة الذهاب والعودة والمعاناة من الراتب الضئيل وجهد المشاركة في الأعمال المنزلية ، فإن هذه الأمور تفقده استعداده الطبيعي لأن يؤدي دوره كموجه لأبنائه يلقنهم تعاليهم دينهم وقيم أخلاق مجتمعهم .

الناحية الثانية وهي أن خروج المرأة إلى العمل كان على حسابها وحساب العمل نفسه .

ففي مقال بعنوان «المرأة العاملة هل هي مريضة نفسيًا؟» تتحدث الكاتبة في هذا الصدد فتقول : «إذا كانت هذه المشكلة ما زالت مثار حوار على المستوى الاجتماعي فإن مشكلة عمل المرأة الحديثة وتمزقها بين العمل خارج البيت وداخله لها جوانبها النفسية التي شغلت أساتذة علم النفس منذ أن بدأت تظهر هذه القضية إلى الوجود ، وبعد أن تتحدث عن نماذج مختلفة من الشخصيات تقول : «وأيًا كانت وجوه الاختلاف بين هذه النماذج المتعددة ، فإنها من وجهة النظر النفسية تشترك جميعًا في الشعور بعدم الطمأنينة ونقص الثقة بالذات ، والقلق الداخلي والنزعة إلى الهرب من الواقع والاستغراق في أحلام اليقظة» ، وتذكر الكاتبة في مجال آخر فتقول : «فقد اتضح من الدراسات أن عددًا كبيرًا من الفتيات العاملات لا ينظرن إلى العمل كوضع

مستقر دائم لحياتهن ولا يقبلنه إلا على اعتبار أنه ظرف مؤقت ينتهي بانتهاء الحاجة إليه ، بل إن منهن من تنظر بفارغ الصبر يوم زواجها لكي تقطع علاقتها بالعمل وتركن في البيت وتعتبره شرطًا أساسيًا لقبولها الزواج ، ولا شك أن هناك أسبابًا كثيرة تدفع الفتاة في عصرنا الراهن إلى العمل ، ولعل من أهم هذه الأسباب إلى جانب العامل الاقتصادي شعور الفتاة بالحاجة إلى المساهمة في الحياة العامة» ، ثم تتحدث الكاتبة عن الصراعات العنيفة بين شعور المرأة العاملة بضرورة التفرغ لرعاية الأسرة والأبناء من ناحية ، وتحقيق الطموح في الجوانب الأخرى للحياة من ناحية أخرى .

يعبر أَحدُ الكتاب عن هذه المشكلة فيقول : «والأم أيضًا في ظل توتر الخروج والدخول الدائمين ومسؤولياتها النفسية تجاه الأسرة ، وافتقار الاستقرار الحقيقي وسط تعرضها المستديم لمتاعب الانتقال في رحلتي الذهاب والعودة وأشغال الإبرة والدردشة والثوب الجديد والحذاء «والشنطة» والمكياج والشعر المستعار .... إلخ ، من مستلزمات حياة العذاب العصرية لتجد نفسها في نهاية يومها غير مهيأة للتعامل مع الزوج كزوجة أو مع الأبناء كأم ، والبيت مجرد «بانسيون» يجمع الأسرة ساعات النوم والروابط الأسرية لا وجود لها أمام كل هذا التشتت والطريق مفتوح على مصراعيه أمام الأفكار الحضارية شرقًا وغربًا وهو المطلوب إحداثه ، كل هذا في سبيل راتب المرأة الناتج عن إشغال الإبرة والدردشة والذي تستهلكه المواصلات والملابس وأدوات التجميل والمناسبات الاجتماعية التي تتسع لكل العلاقات وأجر الشغالة أو المربية أو الحضانة بالإضافة إلى مستلزمات التداوي المستديمة

الناتجة عن خروج الأطفال في ظروف حيوية قاتلة في بعض الأحيان ولا يتبقى من راتبها سوى العذاب والضياع لها وللأسرة» .

أما أثر ذلك على المجتمع ، فيقول الكاتب في نفس المقال : «إنها قضية أصبحت تفرض نفسها على مجتمعاتنا خاصة ونحن نبحث عن أرضية إسلامية نقف فوقها من جديد ، ويشير إلى صورة القانون الذي يناقشه مجلس الشعب المصري بشأن قضية عودة المرأة العاملة إلى بيتها والتي سبق مناقشتها طويلًا على المستوى الشعبي منذ سنوات سابقة ، وأصبحت الغالبية العظمى في المجتمع مقتنعة تمامًا بوجوبها من خلال المعاناة اليومية القاسية» ، ثم يشير إلى عمالة المرأة ، وما نشأ عنها من أمراض اجتماعية فيقول : «يصبح خروج المرأة إلى العمل ترفًا لا مبرر له وتقليدًا أحمق لقيم مستوردة لا طائل من ورائها سوء الانهيارات النفسية والخلقية ومن ثم الدينية في بناء المجتمع فضلًا عن انهيار الهيكل الإنتاجي ، وذلك لاشك هو الأرضية التي قام فوقها قانون مستورد يفرض نفسه على أفراد الهيئة التشريعية في المجتمع الذي عانى طويلًا من الفكر الهدّام وأصحابه» .

رابعا : تجربة المملكة العربية السعودية :

بعد أن تحدثنا عن تجربة ثلاث دول سبقتنا في عصر التصنيع والدخول إليه والحضارة الحديثة ، لابد أن نشير إلى تجربة المملكة في هذا المجال حيث إنها متمسكة والحمد لله بالتشريع والقيم الأخلاقية ، كأساس لمنهجها ، فالتعليم والعمل يُتمان في الابتعاد عن الاختلاط ، وهي لا تزال في بداية المشوار ، وقد قطعت شوطًا لا بأس به في تعليم المرأة ودخولها في مجالات العامل ، فلقد تعلمت المرأة وعملت كطبيبة أو ممرضة أو مدرِّسة أو مشرفة اجتماعية أو مدبرة

منزلية ، ومن الضروري الاستفادة من تجربتها هذه التي قطعتها ونتائج تجارب الدول الأخرى في التطور واللحاق بركب الحضارة من تجسيد مبادئنا ، وحتى لا نزج المرأة في مسؤوليات تختص بخدمة المجتمع ، ونفقدها دورها الأساسي داخل أسرتها ، أو نحجبها عنه من أجل الكسب المادي في الراتب ، فإن ذلك سيؤثر في المدى البعيد على وضع المرأة الوظيفي ودورها الأسري ، كما ستتأثر كذلك طبيعة العلاقات الأسرية وتأخذ شكلًا من العلاقات التي تغلب عليها الصبغة المادية ويصبح الرجوع عنه من قبل المرأة شيئًا صعبًا ، خاصة أننا نعيش في عصر أصبحت تتحكم المادة فيه بكثير من الأمور .

فالكاتبة السعودية ـ سهيلة زين العابدين حماد تتحدث عن إهمال الجوانب الروحية والوجدانية في وظيفة المرأة تجاه أسرتها ـ رغم خطورتها ـ والنظرة المادية البحتة حيث يؤخذ بعين الاعتبار فقط الأكل الذي يكون جاهزًا ، والبيت والملابس النظيفة وأن يكون الأطفال في مدارسهم والرضّع عند المربيات والمرأة خارج البيت من أجل خدمة مجتمعها فتخاطب المرأة العاملة وأنصارها فتقول : ولقد نسيت ونسوا معها أن الأمومة والزوجية قبل أن تكونا واجبات مادية بحتة لهما جوانب روحية ووجدانية لا يمكن لأحد أن يحل محل الزوجة ذاتها ، والأم نفسها وافتقادهما لها يؤدي إلى تخلخل كيان الأسرة وتفكك روابطها وانحراف أفرادها وبالتالي انتكاس المجتمع أخلاقيًا ، وأن نكسة المجتمعات في أخلاقها والتي خرجت فيها المرأة إلى العمل جنبًا إلى جنب مع الرجل من أهم أسبابها هو فقدان الأمومة والزوجية للجوانب الروحية والوجدانية .

ثم تجد الكاتبة عذرًا للمرأة غير المسلمة التي تغفل عن قانون الزوجية الذي

بينه القرآن الكريم في ارتكازه على ثلاثة أركان في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١] ، ولكنها لا تجد عذرًا للمرأة المسلمة في جهلها أو تغافلها عن ذلك جريًا وراء العمل التكسبي وتحمسًا له والاعتقاد بأن قرار المرأة في بيتها يعني العودة بها إلى عصر الجَدّات والأمهات الجاهلات فتقول : وأنا أقولها هنا بصراحة وبملء فمي : إن جداتنا وأمهاتنا الجاهلات قد أدين وظيفتي الأمومة والزوجية بجانبها الروحي والمادي خيرًا منا نحن بنات الجيل المتعلم الذي قصر كل التقصير في ذلك مما سيكون له نتائج وخيمة على مجتمعنا سنحصد ثمارها قريبًا .

ثم تضرب الكاتبة مثلًا بتجربتها في العمل الصحافي فتقول : ولقد مارست العمل التكسبي من قبل ، وأعطيته كل وقتي وجهدي وطاقتي ، وكانت النتيجة أن نجاحي فيه كان على حساب واجباتي تجاه والدي وأخوتي حتى أنني لم أجد الوقت الذي أجلس فيه معهم ، وتفضل بعد تجربتها في العمل الصحافي أن يكون العمل بشكلٍ متعاونٍ ، أي تمارسه وهي في بيتها وليس احترافًا لصعوبة خضوع المرأة لطبيعة العمل فيه .

وتبين أسباب معارضتها لعمل المرأة خارج بيتها فتقول : «إنما أعارض عن قناعة وإيمان وتجربة عشتها ولمست نتائجها» .

ثم تضع اللوم على نظام عمل المرأة الذي لم يفرق بين المرأة والرجل وأن الذين وضعوه نسوا أن المرأة أُمٌ وزوجة وابنةٌ عليها التزامات تجاه زوجها وأولادها .

ثم تتوجه إلى مناشدة المسؤولين في الخدمة المدنية وواضعي خطط التنمية

قبل فتح مجالات جديدة لعمل المرأة أن يضعوا لعمل المرأة نظامًا خاصًا تُراعى فيه التزاماتها ومسؤولياتها الأسرية بجوانبها الروحية والمادية معًا ، وتتمنى بعدها ألَّا يخرج نطاق عمل المرأة في المملكة عن مجال التدريس في مراحل المختلفة والتطبيب والتمريض والخدمة الاجتماعية ، وتشير إلى كتابها الذي هو بعنوان بين الإفراط والتفريط في مسيرة المرأة السعودية ، لكي توضع اقتراحاتها موضع الدراسة والاعتبار قبل فوات الأوان .

ثم تعود وتشير إلى الجانب الاقتصادي في الحاجة إلى وضع نظام خاص لعمل المرأة لأنه سيقلل من اعتمادنا على النساء العاملات والعمالة الأجنبية ، وأن هذا بحد ذاته هو مؤشر يشير إلى استفادتنا من إيجابية عمل المرأة وتفادينا لسلبياته الخطيرة مثل الإكثار من استقدام الخادمات والمربيات وتخلخل الروابط الأسرية ، ثم تعتبر أن استمرار النظام المطبق حاليًا على المرأة السعودية مع فتح مجالات جديدة من العمل أمامها هو أمر سلبي يضاف إلى سلبية الاختلاط المعروفة .

حقائق عن التوسع في خروج المرأة :

بعد أن استعرضنا تجربة عدة دول في مشاركة المرأة في خدمة مجتمعها بالإضافة إلى قيامها بدورها تجاه الأسرة بما فيها رعاية الزوج والأولاد ، واطلعنا على نتائج هذه المشاركة من أقوال كتابها أو ممن اختلطوا في هذه المجتمعات وتعرفوا عليها فإنه لزامًا علينا أن نستفيد من هذه التجارب ونتائجها من أجل تنظيم مشاركة المرأة في خدمة مجتمعها لكي تكون مسيرة تطورنا نابعة من أصالتنا وشريعتنا التي فيها صلاح أمرنا في كل زمان ومكان ، وحتى لا نكون كالمقلدين الذين لا يتبصرون بنتائج طريقة الأخذ بأسلوب

المجتمعات الغربية الناتجة عن فكرها المخالف لما تحض عليه شريعتنا .

فنقول : هناك حقيقية وهي أن المجتمع الأمريكي الذي خرجت المرأة فيه من البيت للعمل خارجه من أوسع الأبواب كالرجل تمامًا ، وهجرت عاداتها القديمة في الاقتصاد المنزلي وفي خياطة الملابس وتطريزها ورفو الثياب بالإضافة إلى تجفيف الفواكه وحفظها وإعداد المؤونة من خيرات بلادها بالإضافة إلى هجرها لصناعة الجلد والنحاس وحفر الخشب ومعرفة نفسية الطفل ، فخروجها هذا ساعد على زيادة دخل أسرتها المادي من جهة ، إلا أنه بنفس الوقت ترتب عليها نفقات جديدة للأسرة وفي تكاليف ملابسها و«مكياجها» وعطورها وأدوات تجميلها ومواصلاتها وترويحها عن النفس وما يقال عنه إنه من مستلزمات عصرها من جهة أخرى ، وأصبحنا استهلاكيين الطبع .

وقد نجم عن هذه الحالات مشكلات كثيرة كالتفكك العائلي بالإضافة إلى ازدياد نسبة الطلاق والعزوف عن الزواج والانحرافات الاجتماعية التي أصبح المجتمع يعاني منها .

وهذا ما أراده الله تعالى بقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:٣٣] ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣] .

وإذا رجعنا سنوات إلى الوراء واطلعنا على حال المرأة العربية فإنها كانت مدبرة اقتصادية من الدرجة الأولى لبيتها وأسرتها بالإضافة إلى عطائها في النواحي الوجدانية والعاطفية لزوجها وأبنائها ولجميع من يلوذ بها .

صحيح أن الاكتشافات الحديثة قد وفرت عليها كثيرًا من الجهد والتعب وغيرت أسلوب حياتها كدخول الغسّالة والثلاجة إلى المنازل ، وكذلك الهاتف وغيره ، إلا أن ذلك لم يرفع عنها كل شيء ، فالبيت لا زال يحتاج إلى الكثير من جهدها ، وخصوصًا في فترة الزواج والإنجاب ، وما يترتب على ذلك من وظائف تربوية وما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية .

لقد كانت المرأة في الماضي تحيك الثياب وتطرزها وتشتغل في حياكة الصوف وغزله ، كما تصنع المربيات وتحفظ الفواكه وتصنع المؤونة من الخضار وتعد الفتاة جهاز عرسها ، وقد تساهم المرأة أيضًا في صناعة بلادها ، أعرف بعض العائلات الكبيرة التي تشتهر نساؤها بتطريز العباءات بخيوط الذهب والقصب ، وهن جالسات في بيوتهن ، وبعضهن يعملن بأشياء تتعلق بحياكة الملابس وتطريزها وأشغال الخياطة وكثير منهن تعلقن بمثل هذه الفنون الشعبية ، وهكذا يمكن للمرأة أن تساهم بمثل هذه النواحي وتطورها بما يناسب العصر الحديث والاستخدامات العصرية ، كما يمكنها أن تعمل الكثير من أجل أولادها في أعمال الخياطة والتريكو .

ورغم علمنا بالقاعدة المعروفة القائلة : إنه لا يوجد فن منفصل عن التقاليد الموروثة ، فنجد مثلًا أن فنون الخياطة والتطريز والأشغال اليدوية والتغذية التي كان للمرأة قديمًا مجال واسع فيها ، فإننا نجدها ويا للأسف قد تلاشت جميعها وحلّت محلها الفنون الأوربية الحديثة وصناعاتها التي هي غير مرتبطة بتقاليدنا وموروثاتنا كما أنها لا تعتمد على منتجات بلادنا وجهود أبنائنا .

وبالمناسبة فإن قيام جمعية النهضة الحديثة بجمع الأكلات الشعبية السعودية وعرضها بشكل فني حديث وجذاب في كتابها الذي أصدرته بعنوان «فن

الطبخ السعودي» هو عمل جليل ، ذلك لأنه قد حفظ التراث السعودي في هذه الناحية من الضياع والاندثار ، وأن أهمية هذه المآكل تأتي من كونها تعتمد على خيرات هذه البلاد ومنتجاتها الزراعية والحيوانية التي كانت تستخدمها الأمهات والأجداد .

إن ازدهار بعض الصناعات التي تحتاجها البلاد كثيرًا ما ينشأ عنها صناعات تكميلية يمكن أن تقوم به المرأة وهي في بيتها من أجل التكسب أو شغل وقت الفراغ أو ممارسة العمل الذي يناسبها كمتعة وهواية تتحقق فيه منفعة اقتصادية للبلاد .

والمفروض أن التطور والنمو في مسيرة البلاد يكونان نحو الأفضل والأحسن من جميع النواحي، بما يحقق الاحتياجات المعاصرة وليس التطور هو أن تنفصل المرأة عن تراثنا فيما مضى ، وأن تترك ذلك النوع من الفنون الذي هو جزء من عالمها وقدراتها في ملكة التفوق الفني والصبر وما يناسب وظيفتها الاجتماعية ويكمل دور الرجل ، وليس التطور أيضًا أن تتجه المرأة إلى أعمال أخرى يمكن أن يقوم بها الرجل وتترك أولوية مجالاتها التي يمكن أن تظهر فيها إبداعاتها لتصنعها لها البلاد الأخرى وتصبح هي مجرد مستهلكة لها .

حاجتنا إلى كلية للفنون الإسلامية :

وأتساءل في هذا المجال ، ترى ما هي الأسباب التي تجعل المرأة في مجتمعنا تعتمد في حياكة ملابسها على المنتوجات الأجنبية ؟ السبب على ما أعتقد يعود إلى أننا بحاجة إلى إعادة النظر في التعليم الفني في المراحل المختلفة والتخلص من الأسباب التي تؤدي إلى التبعية الفكرية له وبذل الخطوات في تأصيل هذه الفنون وربطها بجذورها الثقافية للمحافظة على الحبل السري بين الحاضر

وبين تلك الجذور حتى تتغذى منها الأجيال ، ويحسنوا تذوقها بالقدر المناسب ، كما أننا بحاجة إلى توسيع الدراسات الجامعية وما قبل الجامعية التي تهتم بالتدريب العملي لجميع ضروب الحياة وصنائعها ومهنها ، في الاقتصاد المنزلي وتأصيلها والاهتمام بها لتشمل فروعها جميع الجامعات بالمملكة ، وهذا الاهتمام يجسد القاعدة الشرعية الأساسية في أن المجال الأساسي للمرأة هو دورها الأسري ، وأن ترصد لها الإمكانات المادية وتدعم معنويًا حتى تؤدي غرضها وتفي باحتياجاته ويكون لها التأثير المطلوب على المجتمع في عملية الأخذ والعطاء المتبادل وتحقيق الاكتفاء الذاتي في احتياجاتها الأساسية ، كما أن إنشاء كلية متخصصة بالفنون الإسلامية للبنات وأخرى للذكور هي ضرورة ماسة حتى تصبح مثل هذه الكليات مركز إشعاع فكري وحضاري على المجتمع ، بحيث يتخرج منها المتخصصون والمتخصصات بجميع ألوان الفنون الإسلامية والمدركون لأبعادها وما تشمله من فنون تطبيقية عملية تدخل إلى جميع الاستعمالات اليومية في حياتنا وليست منفصلة عنها ، فيكون لها التأثير المطلوب على جميع ألوان فنوننا وصناعاتنا ، وتحقق لنا الاكتفاء الذاتي في صنع احتياجاتنا ، وما فنوننا الشعبية إلا جزء ينبض بالحياة من عالم الفنون الإسلامية ولون من ألوانه التي تمتد أبعاده لتشمل العمق التاريخي والجغرافي للأمة العربية الإسلامية .

ولا يمكن أن يكون الشعب الهندي يملك أصالة فنون نرى سماتها وأبعادها تظهر على أغلب مظاهر حياته ونحن من أمة أعظم ما ترك لها أجدادها مظاهر الفن والحضارة ثم لا نرى سماتها وأبعادها تظهر على بناء حضارتنا الحديثة ؟!!

ومن ناحية أخرى فإننا بحاجة إلى تخريج أجيال ذات تخصصات علمية

ومهنية ترتبط بتلك المجالات التي توازي التخصصات النظرية وتكملها حتى تلبي احتياجاتنا الصناعية إلى اليد الفنانة المدربة والماهرة ، فإن ذلك يساعد على تلبية احتياجات المجتمع ومواكبة النهضة الحديثة المطبوعة بطابعنا الخاص على المستوى القومي الذي يحافظ على هويتنا الحضارية وسماتها القومية ، غير متأثرين بالفنون الغربية التي تختلف كل الاختلاف عن فنوننا وما يتعلق بها من فكر يسعى إلى تبعيتنا له فكريًا واقتصاديًا وحضاريًا .

إن حدوث التغيرات والتطورات العلمية والاقتصادية في بلادنا لا يعفي المرأة من أن تكون وراء صناعة صوفية تُطَوِّرُ فيها الصناعات التي تقوم بها المرأة في البادية ، أو أن تكون وراء صناعة للأثاث المنزلي أو صناعة لحفظ الأغذية والكونسروة ، أو صناعة لألعاب الأطفال أو لأدوات التجميل أو العطور أو الصابون أو غير ذلك .

حيث يمكن للمرأة أن تكون وراء مثل هذه الصناعات التي تجد أن البلاد بحاجة إليها سواء بالتعاون مع زوجها أو ابنها أو أبيها إذ لا تهتم المرأة المسلمة التي تخاف الله أن تكون هي في واجهة هذه المشاريع الصناعية قدر ما يهمها إلى تحقيق الخير والاكتفاء الذاتي لأمتها ومجتمعها ، وكما قال الدكتور رشدي فكار : «إنها ـ أي المرأة ـ تعمل كطاقة خلاقة تضمن للأمة الإسلامية أن تخرج من ظلمة التخلف واستغلال الآخرين لضعفها لكي تكون خير أمة بحق أخرجت للناس» .

ونجد أنه من الضروري أن يضمن المجتمع حقوقها الاقتصادية التي شرعها الله لها ، ويحافظ عليها لكي يساعدها على أن تكون طاقة خلاقة وتأتي جهودها مثمرة ، أي أنها تعمل في مجتمعنا بمساندة الرجل مكملة لجهوده

وليس كما هو الحال بالنسبة للحضارة الغربية منافسة له تزاحمه على اختصاصاته وأعماله ومقلده لأسلوب الضرب في ترفه .

ولعلِّي استطعت فيما سبق أن ألقي الضوء على ما قصده الدكتور رشدي فكار في قوله : «فمعيارنا في عمل المرأة هو أن المرأة تعمل ولكن فيما يرضي الله ورسوله ، وما يضمن تدعيم الإسلام ومجتمع الإسلام وبالتالي تدعيم الأسرة ، فمن الخطأ القول : بأن دور المرأة المجتمعي يحجب دورها الأسري ، فالعكس هو الصحيح فالدور الأسري أولًا ، وما يتبقى من وقتها فهو للمجتمع ، ولا شك أن نجاحها في الأسرة هو في حد ذاته نجاح المجتمع ، كذلك علينا أن نضع في حسابنا أن المجتمعات اليوم هي مجتمعات الإنتاج ، ومن الصعب أن نتصور مجتمعًا نصفه عاطل عن الإنتاج ، ومجرد مستهلكات ، إن أهمية العامل الاقتصادي في القرن العشرين تجعل عمل المرأة ضرورة في المجتمع لكي يكون مجتمع الأقوياء لا للضعفاء ، وهو موضوع يستحق الاجتهاد من علماء الإسلام «والإسلام دين الاجتهاد» .

وهكذا يحرص المجتمع على ما يلي :

١ــ أن يكون نظامًا التعليم والعمل بالنسبة للمرأة منسجمين فيما بينهما ومتوافقين مع دور المرأة الأسري الذي هو مكمل لدور الرجل ، وليس تقليدًا لفكر الغرب في فتح مجال العمل لها خارج البيت من أوسع الأبواب ومنافسة الرجل في هذا .

٢ـ مراعاة وضع نظام خاص لعمل المرأة تراعي فيه التزاماتها ومسؤولياتها الأسرية بجوانبها الروحية والوجدانية .

٣ـ أن يحرص المجتمع على وضع ضمانات لكي تربي كل أم أبناءها بنفسها

وخصوصًا المثقفة دون الاعتماد على المربيات والخادمات ، فالمرأة المتعلمة قدوة صالحة لمجتمعها .

٤ـ أن الابتعاد عن زج المرأة بأعمال يمكن أن يقوم بها الرجل ونُفْقِدُها بذلك دورها الأساسي تحت إغراءات المادة ، كما نعمل على أن ننمي المجالات الاقتصادية التي تستطيع المرأة أن تمارس هوايتها وترفع من دخل أسرتها وهي في بيتها قدر الإمكان مع فتح باب المشاركة في الأعمال التي يجدها المجتمع ضرورية لذلك ، وهذا يتطلب منا إحياء المهن الإنسانية والحد من التكنولوجية الواسعة .

٥ـ أن العمل على تأصيل الفنون والصناعات المختلفة تعليميًا وتربويًا حتى نتخلص من التبعية الفكرية والاقتصادية ، خاصة عن طريق إنشاء أكثر من كلية متخصصة للفنون الإسلامية ، مع الاهتمام بفرع الاقتصاد المنزلي لأنه يتعلق بمسؤوليات المرأة الأساسية تجاه الأسرة والمجتمع .

٦ـ العمل على تخريج مصممات أزياء [١] والإكثار من المشاغل والمراكز النسائية لتعليم الخياطة والتفصيل في الأحياء المختلفة مع دعمها من الدولة .

*****

(١) يستفدن من تراثنا وعاداتنا التقليدية ، أي تحقيق المعاصرة مع الاستفادة من أصالة تراثنا ، والابتعاد عن معطيات الموضات الغربية التي هي مصبوغة بصبغة ثقافة الغرب التي هي مختلفة تمامًا عن صبغة تراثنا وعاداتنا التقليدية ، ارجع إلى كتاب : فوزية دياب (القيم والعادات الاجتماعية) ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .